

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163 -1112 العدد 17 (2012) : 19 - 37
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

المقاومة في أدب مفدي زكرياء

مصطفى حمودة

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة غرداية

غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدّمة:

إنّ المقاومة في مواجهة الاستعمار رفض له وإباء، لأنّه استعباد للمستعمَر، وإنكار لشخصيته وهُويّته وتاريخه، وإهدار لكرامته وإنسانيّته. والاستعمار لا يكون إلاّ في أمّة فقدت عناصر مَنْعتها وقوّتها، فأصبحت قابلة للاستعمار، متقبّلة له؛ والمقاومة تأتي بعد ذلك في الأمّة الماجدة انتفاضةً لضمير الأمّة وروحها المستكن في رجالها ونسائها الصالحين والصالحات، واستفاقته من بعد سبات؛ والمقاومة إن استمرّت وتجذّرت سرى نسغ الحياة في دوحة الأمّة، في جذعها وأغصانها، فأورقت وتألّقت بعد ذبول؛ فإمّا حرّية وانعتاق من نير الاستعباد؛ وإمّا حياة ماجدة جديرة بأن تُحيا، حياةُ نضال وكفاح في سبيل الوطن، أو موت شريف وشهادة.

والمقاومة شاملة لأشكال متعدّدة ومتنوّعة كثيرة، من المقاومة العفويّة البسيطة للأمّ اليزجنيّة(1) التي كانت تأمر ابنها عند عودته من المدرسة، بأن يغسل يديه قبل أيّ شيء، ليتطهّر من نجاسة المدرسة الاستعماريّة التي كان يجبر على التعلّم فيها؛ إلى مقاومة الجهل والتخلّف بالسعي الحثيث لنشر التعليم في الأوساط الشعبيّة، كجهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين الجبّارة في هذا المجال؛ إلى المقاومة القلميّة في الصحافة الوطنيّة، كصحف أبي الصحافة الجزائريّة المجاهدة، الشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى؛ إلى الكفاح السياسيّ في إطار الأحزاب السياسيّة كحزب نجمة إفريقيا الشماليّة، وحزب الشعب الجزائريّ؛ إلى المقاومة المسلّحة والثورة التي هي تتويجٌ لأشكال المقاومة السابقة، وهي حتميتُها إذا لم تبلغ غايتها، ولم تحقّق هدفها المنشود، وهو الاستقلال.

والأدب في الأمّة العربيّة كان وما يزال من أبرز عناصر قوّة مقاومتها للاستعمار، والأدباء كانوا وما يزالون من أخلص الجنود لأوطانهم في معارك التحرير والانعتاق؛ وذلك عندما استجاب ويستجيب الأدب والأديب لرسالته التي يفرضها عليه واقعه وظرفه التاريخيّ فرضا، وقد صوّرها الشاعر صلاح عبد الصبور أحسن تصوير حين قال: إنّ «الفنّانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارا للخطر، ولكنّ الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر هربا من السفينة الغارقة. أمّا الفنّانون فإنّهم يظلّون يقرعون الأجراس، ويصرخون بملء الفم، حتّى ينقذوا السفينة، أو يغرقوا معها»(2)؛ ولم يتأتّ ذلك إلاّ حين آمن ويؤمن الأديب بهذه الرسالة إيمانا راسخا، يملك عليه حياته، ولا عجب بعد ذلك أن تصبح رسالة مقدّسة يقول عنها مفدي زكرياء في مهرجان الشعر العربيّ بدمشق، في 23 سبتمبر 1961م(3):

رســالةُ الشّعرِ في الــدّنيا مقــدّسةٌ
لـولا الـنّبوّةُ كــان الشّعرُ قـــرآنا
فكـــم هَتكنا بهــا الأســتارَ مغلقةً،
وكم غَزونا بها في الغيبِ أكــوانـا
[...] وكم حَصدنا بها الأصنامَ شاخِصةً،
وكــم بَعثنا مـن الأصنامِ إنســانـــا
وكـــم رَفعنا بـها أعــلامَ نهضـتِنا،
فخلّدَ الشّعرُ فـي الــدّنيا مَــزايـانـا

المقاومة في أدب مفدي زكرياء:

لقد كان الأدب الجزائريّ إبّان الاستعمار الفرنسيّ، سواء منه المكتوب باللغة العربيّة، أو المكتوب باللغة الفرنسيّة أدب مقاومة؛ وقد عرف الأدب الجزائريّ المكتوب باللغة العربيّة وثبته العملاقة بداية من سنة 1925م، فعن هذه السنة يقول مفدي زكرياء في كتابه "تاريخ الصحافة العربيّة في الجزائر": «وقد امتازت سنة 1925 بحادثين عظيمين في تاريخ حركة المقاومة الجزائريّة: أوّلها تأسيس جمعية العلماء، وثانيهما تأسيس الحزب السياسي الوطني الجزائريّ تحت اسم "نجمة إفريقيا الشماليّة"»[4]، وواكبت هذه الوثبة في ميدان الصحافة الوطنيّة جريدةُ "المنتقد" التي تأسّست يوم 02 جويلية 1925م[5].

ولا أدلّ على علاقة هذا الأدب بهذه المقاومة السلميّة التي توّجت في 1954م بالمقاومة المسلّحة ممّا قاله الشاعر الجزائريّ محمد العيد آل خليفة، وهو الشاعر الإصلاحيّ، في وقفته على قبور الشهداء، يوم عيد الأضحى لسنة 1965م، حيث يقول:

ثورةُ الشّعرِ أنتجتْ ثورةَ الشّعـ
ـبِ، وعادتْ عليه بالآلاءِ[6].

ويذهب شاعر الثورة التحريريّة الكبرى مفدي زكرياء أبعد من ذلك عندما يتحدّث عن الشّعر في الملتقى الثامن للفكر الإسلاميّ ببجاية سنة 1974م، في مقطوعة قصيرة، فيقول:

والشّعرُ أسمى مرتقًى يعلو له
مَن سخّروا الدّنيا لصُنعِ بَقاءِ
لولاهُ ما قامتْ لقوميَ ثورةٌ
أبدًا، ولا هبَّ الحِمى لبِناءِ[7]

والأدب الجزائري لم يكن في ركاب حركة المقاومة الجزائريّة السلميّة، ولم يكن مواكبا لها فحسب، وإنّما كان دافعا لها إلى الأمام، هاديا لها لتصل إلى نتيجتها الحتميّة، وهي الثورة؛ ولا يوجد -في تقديري-أديب جزائريّ تجسّدت في أدبه المقاومة في مختلف مراحلها كما تجسّدت في أدب مفدي زكرياء، فقد انطلق في مسيرته الأدبيّة بقصيدته "إلى الريفيّين" في ذات السنة، أعني: سنة 1925م، وكان شاعر الثورة التحريريّة الجزائريّة بدون منازع، فكتب جلّ أناشيدها بداية بالنشيد الرسميّ للثورة الجزائريّة "قسما" 1955م[8]، وانتهاء بنشيد جيش التحرير الوطنيّ الذي نظمه بسجن البرواقية، بلغة شعبيّة جزائريّة قريبة من الفصحى[9].

وإذا قمنا بإحصاء عدد النصوص الشعريّة[10] لمفدي زكرياء في الفترة الممتدّة بين بداية حياته الأدبيّة سنة 1925م، واستقلال الجزائر سنة 1962م، وهي الفترة التي شهدت مقاومة الشعب الجزائريّ للاستعمار، بمختلف أشكال المقاومة السلميّة والمسلّحة، وجدناها 112 نصّا شعريّا بين قصيدة، ومقطوعة، ونشيد[11]؛ وإذا صنّفنا هذه النصوص الشعريّة بحسب نصيب موضوع المقاومة منها، إلى نصوص عالجته كموضوع أساسيّ، أو ثانويّ، أو ورد فيها إشارة وتلميحا في بيت أو أبيات قليلة، أو لم تتطرّق إليه تماما، تحصّلنا على الجدول الآتي:

المقاومة في شعر مفدي زكرياء 1925-1962

دواوينه / موضوع المقاومة فيها	أساسيّ	ثانويّ	إشارة	لا وجود له	المجموع
"اللهب المقدّس" 1961م	44	11	01	00	56
"تحت ظلال الزيتون" 1965م	01	00	02	01	04
"من وحي الأطلس" 1976م	01	01	01	04	07
"أمجادنا تتكلّم" 2003م	24	07	05	09	45
المجموع	70	19	09	14	112
النسبة %	%62.50	%16.96	%08.03	%12.50	%100

لقد تناولت هذه النصوص المقاومة كموضوع أساسيّ بنسبة 62.50%، وكموضوع ثانويّ بنسبة 16.96%، وإذا جمعنا النسبتين وجدناهما 79.46%، ولم يتخلّف عن تناول هذا الموضوع سوى في 14 نصّا شعريّا(12)، بنسبة 12.50%.

إنّها نسبة عالية، لا أظنّها تتقهقر كثيرا عند وقوفنا على جميع النصوص الشعريّة التي كتبها في هذه الفترة، والتي ما زالت مبثوثة في الصحافة الجزائريّة والتونسيّة والمغربيّة والمشرقيّة؛ إنّها نسبة عالية، لا أظنّها تتقهقر كثيرا عند وقوفنا على جميع النصوص الشعريّة التي كتبها في هذه الفترة، والتي ما زالت مبثوثة في الصحافة الجزائريّة والتونسيّة والمغربيّة والمشرقيّة؛ ولا أظنّ وجود عدد كبير من الشعراء في المغرب العربيّ، وفي الوطن العربيّ ينافسون مفدي زكرياء في هذا الكمّ من النصوص، وفي هذه النسبة؛ وذلك لأنّ مفدي زكرياء -رحمه الله- كان نذر نفسه وماله وحياته في سبيل أن يعيش وشعبه حياة حرّة كريمة في أرضه ووطنه، فيبنيَ مجدا جديدا لأمّته ينضاف إلى سلسلة أمجاد أسلافه، ويحقّق وجودها الفعليّ في العالم.

وإذا استعرضنا مقاومته من خلال نصوصه الأدبيّة -شعرا ونثرا-لاستجلاء صورة المقاومة عنده، وخصائصها المميّزة، وقفنا على ما يلي:

لقد قاوم مفدي زكرياء الاستعمار في سنّ مبكّرة، فأوّل قصيدة تقدّم بها إلى الجمهور الواسع، وأرّخ بها لبداية حياته الأدبيّة هي قصيدة "إلى الريفيّين" في مساندة ثورة الريف بالمغرب وزعيمها عبد الكريم الخطّابيّ، نشرها في جريدة "لسان الشّعب" التونسيّة، في 06 ماي 1925م، وهو في سنّته السابعة عشرة(13)، وقال في افتتاحيتها(14):

أَجِبـريلُ هـلّلْ بـآيِ الظَّفَـرْ
وَكـبِّرْ وخُطَّ جليلَ الخَبَـرْ
ورُفَّ بـأجنحـةِ النّصرِ فـوق
(بني الرّيفِ)، حول القنا المشْتَجِرْ
ورتّلْ على الجيشِ (إنْ تَنْصُرُوا اللّــ
ـهَ يَنْصُرْكُمُ) ببلـوغِ الوَطَرْ

ولقيت القصيدة رواجا واحتفاء كبيرين للموقف الشّجاع الذي عبّر عنه فتى في مثل سنّه أكثر منه لمستواها الفنّي، فقد كان في خطواته الأولى في الشعر، ولم يستكمل شعره بعد أدواته الفنيّة التي تميّزه؛ فأعادت نشر القصيدة جريدة "الصواب" التونسيّة؛ ثمّ تلقّفتها الصحافة المصريّة، فنشرتها "اللّواء"، و"الأخبار"(15)، وقد تحدّث مفدي زكرياء عن هذه القصيدة في لقاء إذاعيّ، بالإذاعة التونسيّة، بُعَيْدَ صدور ديوانه "تحت ظلال الزيتون" 1965م، في برنامج عنوانه "زيارة خاطفة"، ينشّطه الشّاعر والأديب التونسيّ عبد المجيد بن جدّو، فعندما تطرّق إلى علاقته بعمّه الشيخ صالح بن يحي، وأثرِه في تكوين شخصيته، قال:

«تربّيت في أحضان عمّي الذي [...] كان يشجّعني في تعليمي، ويدمجني في الأوساط السياسيّة، وكان مركز الحزب [الدستوريّ التونسيّ] في 25 نهج انجلترا، وكنت أذهب إلى هناك، وألقي القصائد، وأغذّي الشبيبة بقصائد، ومنها قصيدةٌ على "حرب الريف"، نشرت بـ"لسان الشعب"، وحفظها الكثير من المناضلين إذّاك، وكانوا ينشدونها فوق منابر نادي الحزب [...، وألقت السلطات الفرنسيّة القبض عليهم]، ولم تهتد إليّ، لأنّ القصيدة نشرت بإمضاء ابن سليمان، وهي إلى الآن تبحث عن ابن سليمان»(16).

وممّا يميّز مقاومته وضوح الرؤية، بما جعله سابقا لزمنه في موقفه من الاستعمار، فقد كان على يقين تامّ في وقت جدّ مبكّر من عمر الحركة الوطنيّة الجزائريّة بأن لا سبيل إلى الاستقلال إلاّ بالثورة؛ ففي مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين، بتونس سنة 1934م، ألقى خطبته "عقيدة التوحيد" في عشرة بنود، فجاء في بندها الرابع: «لست مسلما، ولا مؤمنا، ولا عربيّا، إذا لم أبذل نفسي ومالي ودمي في سبيل تحرير وطني [شمال إفريقيا] من أغلال العبوديّة، وإخراجه من ظلمات الجهل والفاقة إلى نور العلم والرفاهية والعيش السعيد»(17)؛ وفي بندها الخامس: «كلّ مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله، ووحدة شماله هو أخي، وقسيم روحي، فلا أفرّق بين تونسيّ

وجزائريّ ومغربيّ، وبين مالكيّ وحنفيّ وشافعيّ وإباضيّ وحنبليّ، ولا بين عربيّ وقبائليّ، ولا بين مدنيّ وقرويّ، ولا بين حضريّ وآفاقيّ، بل كلّهم إخواني أحبّهم وأحترمهم، وأدافع عنهم ما داموا يعملون لله والوطن، وإذا خالفت هذا المبدأ فإنّني أعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه»[18].

وفي مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين، بتلمسان سنة 1935م، فرقع -على حدّ قول الأستاذ محمد قنانش-قنبلته بكلّ بساطة، وببرودة تامّة، ففي مناقشة موضوع "التعليم العربيّ في أقطار الشمال الإفريقيّ" في جلسات عمل المؤتمر، طرح ممثّل جمعية العلماء المسلمين بمدينة سيدي بلعباس، الأستاذ محمد الهادي السنوسيّ السؤال التالي: «كيف يمكن تنفيذ القرارات التي تتخذونها؟ وقد درست جمعية العلماء الموضوع، واتّخذت قرارات، ولكنّها بقيت حبرا على ورق، وإذا بصوت ينطلق من وسط القاعة ليقول كلمة واحدة تهزّ الحاضرين، وتلتقي الأعين كلّها لترى صاحب هذه الكلمة، وإذا به الشاعر مفدي زكرياء بلحيته الخفيفة وطربوشه الطويل.

أمّا الكلمة التي أطلقها كالقنبلة، فهي "الثورة" كوسيلة للتنفيذ»[19]، ويعلّق الأستاذ محمد قنانش على هذه الحادثة تعليقا له دلالته القويّة، وذلك حيث يقول: «وكلمة الثورة هذه كانت بالنسبة لي، ولأغلبية الحاضرين شيئا جديدا، وكانت غريبة عن مجتمعنا»[20]. لقد صرّح بما كان يهمس به قلّة قليلة من المناضلين، في مجالسهم الخاصّة، وبما خفي على كثير من المناضلين في سبيل القضيّة الجزائريّة آنذاك؛ وقد صدع بهذه القنبلة في ملإ من الناس كبير، وفي ظروف صعبة أقيم فيها هذا المؤتمر في مدينة تلمسان، فإذا هو يستشرف طريق الخلاص لوطنه قبل تسع عشرة سنة من قيام الثورة التحريريّة الكبرى.

وممّا يميّز مقاومته للاستعمار أيضا عدم نيل السجن والتعذيب منه قيد شعرة، وإنّما كانا حافزين لإبداع أروع قصائده وملاحمه، فقد دخل السجن خمس مرّات، أربعة منها قبل قيام الثورة التحريريّة، وأمضى فيها سبع سنوات بقدر سنوات الحرب، حتّى لقد كان من مشاريعه تأليف كتاب بعنوان "سبع سنوات في سجون فرنسا"، فلم يثن كلّ ذلك من عزمه، ولم يكسرْ شوكته:

دخل سجن بربروس لأوّل مرّة يوم 27 أوت 1937م؛ فبعث برسالة بتاريخ 1937/09/28م، إلى صديقه الأديب محمد العريبيّ صاحب جريدة "صبرة"، الملقّب بابن تومرت، وقد ورث منه هذا اللّقب أيّام الثورة، فأمضى به أشعاره ومقالاته، ونشرت الرسالة بعد ذلك بجريدة "صبرة"؛ وممّا جاء فيها -ممّا يدلّ على معنوياته المرتفعة، وعدم تأثير ظروف السجن الصعبة فيه- قوله: «إنّ الآمال والأماني -يا ابن تومرت-تغمر جوانب نفوسنا حياة ونورا، وتبدّل وحشتنا أنسا، وتعبّئنا راحة وهناء. ولولا تلك القوّة الجبّارة من الآمال التي أعيش في حضيرتها لما كان بربروس على ضيقه ليسع هذه النّفس التي لم تسعها الجزائر على طولها وعرضها.

ولم تكن الأمراض لتنساني هي الأخرى، فكأنّما آنست في الجسم راحة، فانتهزتها فرصة، وبرزت في قروح ودماميل تضافرت على إقلاقي ليالي وأيّاما [...]؛ ولست بهذا متبرّما شاكيا، ولا جازعا باكيا، وقد جُبلتُ على تحمّل كلّ شيء غير الذلّ والمهانة، ولقد عجم الدّهر عودي، فوجده صلبا لا ينكسر»[21].

وفي يوم 29 نوفمبر سنة 1937م، كتب نشيد الشهداء "اعصفي يا رياح"، وقد صدر الأمر من جبهة التحرير الوطنيّ إلى المحكوم عليهم بالإعدام أن يردّدوه قبل الصعود إلى المقصلة سنة 1956م.

وعند قيام الثورة في 01 نوفمبر 1954م التحق بصفوف خليّة من أولى خلايا جبهة التحرير الوطنيّ، بالجزائر العاصمة، وكانت متكفّلة بجلب السلاح للثورة من الخارج، وتوزيعه؛ وكان مقرّها محلّ السيّد إبراهيم بن بالحاج الحاج أيوب القرادي، وعنوانه: 10 شارع أوغست كانط، بحيّ بلكور، بالجزائر العاصمة، وكانت هذه الخليّة تضمّ: كريم بلقاسم، السّارجان اعْمر أوعمران، عبّان رمضان، ومصطفى فرّوخي، وربّاح لخضر، وغيرهم. التحق

بهذه الخليّة جنديّا بسيطا بها، من غير أن يجد أدنى غضاضة في ذلك، وقد كان في الثلاثينيّات الرجل الثاني بعد مصّالي الحاج في حزب الشعب الجزائريّ؛ وهو ما صعب على الكثيرين فعله.

لقد ألقي القبض على أغلب عناصر هذه الخليّة، فألقي القبض على مفدي زكرياء في الأسبوع الثاني من أفريل 1956م[22]، وبعد أسبوع من الاستنطاق نقل يوم 19 أفريل 1956م إلى سجن بربروس[23]، برفقة عضوين من نفس الخليّة، وهما أخواه من وادي مزاب: المجاهد إبراهيم بن بالحاج الحاج أيوب القرادي، والمجاهد صالح بن بكير حجّاج، وفي طريقهم إلى بربروس، ودماؤهم تنزف من أثر التعذيب والاستنطاق، يطلب مفدي زكرياء من صالح حجّاج أن يطبّل ليغنّي، فيرفع صوته مترنّما بهذه الأغنية الثوريّة باللغة الشعبيّة الجزائريّة:

رُوحِـي يَـا دْزَايَـرْ   رُوحِـي تَضْحِيَهْ
القَلْبْ اللِّي بَـاغِي   يَـبْكِـي نَكْوِيهْ
دَعْــوَةْ جْـدُودَكْ   قْـوِيَّــهْ
اللِّي اخْطَى وَتْعَدَّى   اَطَفْرَتْ فِيــهْ

وفي بربروس أودع زنزانة انفراديّة لمدّة شهر كامل، لاستكمال التحقيق معه قبل أن يلتحق بإحدى قاعات السجن التي تضمّ عددا كبيرا من المساجين[24]؛ وفي وحشة الزنزانة، وبعد أسبوع ونيف من دخوله السّجن يوم 28 أفريل 1956م «هاجت -على حدّ قوله في تقديمه للقصيدة- في أعماقه المواجد، ونظم هذا القصيد في ظلام الزنزانة، وحفظه بيتا بيتا لاستحالة كتابته»[25]، فكانت إحدى أروع قصائده، يقول في مقدّمتها مستهزأ بجميع ألوان التعذيب التي سلّطت عليه[26]:

سِيــانَ عنـديَ مفتـوحٌ ومـنـغلــقُ
-يا سجنُ- بابُك، أمْ شُدّتْ بها الحَلَقُ
أمِ السّيـاطُ بـهـا الـجلاّدُ يُـلهبنــي،
أمْ خـازنُ الـنّارِ يَكويني، فـأَصطـفقُ
والـحـوضُ حـوضٌ وإنْ شـتّـى مـنابعُه،
أُلـقـى إلى الـقـعـرِ، أمْ أُسقى فـأَنشرقُ
سِرّي عظيمٌ، فلا التّـعذيبُ يَسمحُ لي
نُـطـقًا، ورُبَّ ضِـعـافٍ دون ذا نَـطقوا

ويخاطب السّجن في خاتمتها قائلا:

وأنتَ يــا سجنُ، لـــو أَقْلَتَّ نــاصيتي
رَأيتَـني لـخطـوطِ الـنّارِ أَختـرقُ
لا أَبـتـغي العــزَّ إلاّ في مُـغامـرةٍ،
إنّ السّمـاواتِ للمِقدامِ تَنْفَـتِـقُ
رُوحي، وهبتُكِ يا روحي فِدى وطني،
زُلفــى إلى اللّـهِ، لا مـنٌّ ولا مَلَـقُ.

لقد كان سجن بربروس أو سركاجي إذّاك عالما آخر، زاخرا بالوطنيّة والبطولة والفداء، وتعالت فيه مهج المساجين من جبهة التحرير الوطنيّ إلى أعلى درجات السموّ الروحيّ، والنبل، والسخاء؛ وكانت أجلى ما تتوضّح هذه المعاني ساعة تنفيذ الحكم بالإعدام، ويصف مفدي هذه الساعة في مقال كتبه في بربروس، عنوانه "كيف نتحدّى المقصلة"[27]، وممّا جاء فيه:

«اللّيل دامس، والسّكون رهيب، والكون حالم واجم، فلا تسمع إلاّ عربدةَ بعضِ الحرّاسِ، وقد أثملتْهم الخمرةُ، يحتسونها ليلة الإعدامِ، ليتخلّصوا من شبح الإثم المهول؛ ولا ترى من حين لآخر إلاّ أشباحا سوداءَ كالغرابيب، تدلفُ كالأرواح الشّريرة في أروقة السّجنِ، تُطلُّ من ثُقب الأبواب، علَّ سجينا لاذ بالفرار، وتَجسُّ القضبان الحديديّةَ علّها فقدتْ صلابتَها، وتحوّلتْ إلى مادّة شمعيةٍ يَسهلُ انكسارُها.

وقد تَسمعُ في الهزيع الثّاني من اللّيل حركةَ سياراتٍ غيرَ عاديةٍ تقتربُ من السّجن. فجأةً تَنطفىءُ الأضواءُ إلاّ ضوءٌ باهتٌ في باحةِ الموت، وتُصرصرُ المفاتيحُ على الأقفالِ، ماذا؟ إنّها الواقعةُ ليس لوقعتها كاذبةٌ، ولا خاطئةٌ، إنّها ساعةُ الموتِ.

السّجنُ كلُّه يميد، صوتُ ثلاثة آلاف سجين تُدوّي عاصفةً كالرّعدِ، تَرجف لها عرصاتُ "بربروس"، وتردّدُها الأصداءُ[28] على مرتفعات الجزائرِ، ومنخفضاتِها: "الله أكبر" [...]، ثمّ تنطلق الحناجر بنشيد الشّهيد "اعصفي يا رياح" [...]؛

ويُشيع على المهرجان سحرا أصواتُ النّساء المائجات في رِواقهنّ بالنّشيد، والزّغاريد، تقودُ جوقتَهنَّ جميلة بوحيرد الثائرة.

في وسط هذه الضجّة كلّها يَتصاعد إلى السّموات صوتٌ دافئ يُجلجل في ساحة "بربروس"، صوت الشّهيد في طريقه إلى الخلود، وهو يختال بأقدام ثابتة: "الله أكبر"، "اِصبِروا يا إخوان"،[...] "الله أكبر"، [...] فلتحي الجزائر حرة مستقلّة، أيّها الإخوان، نحن السّابقون، وأنتم اللاّحقون، فإلى اللّقاء في "العالية".

[...] وانظر إلى ذلك الطفل الذي لم يبلغ السادسة عشرة من عمره ، تختطفه عصابة "بوجي" و "قرقيلوف" في ساعة الموت، وهو يغطّ في نوم عميق، فيستيقظ على أصوات إخوانه المساجين، فيجد نفسه على خطوات من المقصلة، فيخاف ألاّ يسمعَ إخوانُه صلواته، فينفلتُ من أيديهم راجعا إلى باحة السّجن، لينادى بصوت الطفولة البريئة، في رقّة وحنان: "الله أكبر، تحيا الجزائر".

[...] هكذا يتقبّل أبناء الجزائر الموت من أجل الحياة، وهكذا يموتون ابتغاء البقاء، وإنّ شعبا له من قوّة الإيمان، وصدق العقيدة هذا الرصيد لن يخيّبه الله أبدا، ولن تستطيع أيّة قوّة في هذا الوجود لتصدّه عن بلوغ ما يصبو إليه من مجد وكرامة»[29].

لقد كان إنتاجه الأدبيّ في السجن غزيرا، رغم الظروف الصعبة التي عاشها فيه، أقلّها قد يمنع من التفكير في الكتابة أصلا؛ فمن وسائل التعذيب التي كانت تمارس ضدّه هو تسليط أضواء كاشفة على عينيه ليل نهار، فتأثّرت عيناه[30]. يحكي صديقه المجاهد صالح بن بكير حجّاج:

«كان يناديني أحيانا، لأنّه كان مريضا، لأكتب له، لأنّي كنت -كما تقول القيادة-أحسن الكتابة. كان مفدي زكرياء، يتّخذ مكانا له في آخر القاعة09، وكان يكتب ليلا.

كانوا يقدّمون فطور رمضان للمساجين على الساعة الواحدة بعد الزوال، وفي انتظار المغرب على الساعة السادسة مساء، يتجمّد، ويعلوه السّوس. كان مفدي يأخذ قطعة من القماش يجمع ما علا الطعام من الإدام، فيستعمل هذه القطعة كفتيل يشعله ليلا، ليكتب، وكان يخفي نور مصباحه هذا بلحافه، لحظة مرور دورية الحراسة، كان الأمر معه متعبا رحمه الله.

لقد كان يفتّش -على حدّ قول المجاهد صالح حجّاج- عن القافية، وكان رفاقه في القاعة يفسدون عليه، لأنّه كان يزعجهم بغمغمته طول الوقت، فيقولون له: يَا شِيخْ كَثَّرْتْ عْلِينَا.

كانْ يَزْمَرْ ويَهْدَرْ، من الهَدِيرْ، وهو الصوت الذي يحدثه في لحظات الإبداع؛ وكان يحدث له أن يستيقظ من النوم، ليكتب. كان يطلبني، لأعينه بتوفير الجوّ له ليتفرّغ لكتابة الشعر، وعملت كاتبا له أيضا.

كتبت له قصائد كثيرة، ثمّ أوقفت القيادة العمليّة، لأنّ السلطات الاستعماريّة لاحظت الكثير من القصائد تخرج من السّجن، فشدّدوا الرقابة، وأصبحت دورية الحراسة تمرّ كلّ نصف ساعة بعد أن كانت تمرّ كلّ ساعة»[31].

وفي زنزانات التعذيب حيث لا يجد ورقا ولا قلما، يكتب على لفائف التّبغ نشيد "عشت يا علم"، بدمه المنسكب من جراحات التعذيب، ويقول في تقديمه: «كتبه الشاعر بدمه في قعر الزنزانة، وأهداه للحكومة الجزائريّة»[32]، وقد أكّد «الدكتور محمد لعساكر هذه الدّعوى، وشهد بأنّه رأى النشيد مكتوبا بدم الشاعر على ورق لفّ السجائر»[33]. وبعد الاستقلال في السبعينيّات عثر الدكتور صالح خرفي على هذا النشيد، وعددٍ من قصائد مفدي عند نجل الأستاذ محبّ الدين الخطيب، عندما كان يجمع "الديوان المخطوط للثورة الجزائريّة"، وينشره تباعا في مجلّة "الثّقافة"، فعندما يعلم بذلك مفدي زكرياء يخطّ له رسالة من الدار البيضاء بالمغرب، بتاريخ 17 أكتوبر 1974م، وجاء في حاشية، في ختامها ما يلي: «إنّي جدّ مسرور بالوثائق التي عثرت عليها عند نجل المرحوم الأستاذ محبّ الدين الخطيب، وكذلك نشيد العلم المكتوب في ورق التّبغ. وهل تدري كيف أُخرجتْ من السّجن، وأخذتْ طريقها

إليك للقاهرة؟ وُضعتْ في أنبوبة دواء صغيرة ملفوفة بورق البلاستيك، وأدخلت في (دُبُرِ) أحد المساجين الذين بارحوا السّجن يومذاك، ليُمَكِّنَهَا بدوره لمسؤول في جبهة التحرير آنذاك (مالك رضا)، وهو بدوره وجّهها لك، بإشارة منّي، على غرار ما وقع في غيره من القصائد التي خرجت من السّجن، ونشرت بصحف تونس ومصر، ومنها العينيّة في الذكرى الرابعة للثورة الجزائريّة التي أوجّهها لكم، فاحتفظوا لي -مشكورين-على هذه الوثائق، لآخذ منها صورا طبق الأصل»[34].

هذا هو مفدي في السّجن، وهذه عيّنة من أجواء السّجن التي كانت ترفع الجزائريّ آنذاك إلى أسمى مراتب البذل والسخاء في سبيل الوطن، وقد قدّم مفدي أجلى صورة عن هذا الجزائريّ، وزاد فخلّد كفاحه ومعاناتَه شعرا؛ فعند الإفراج عنه من سجن البرواقية بتاريخ 01 فيفري 1959م، فرّ إلى المغرب، وكتب في طريقه قصيدته "أنا ثائر"[35]، وعندما استقبله جلالة الملك محمد الخامس أهدى إليه مجموعة من ملاحمه الثوريّة التي نظمها بسجن بربروس، وارتجل أبياتا صوّر فيها الموقف، فممّا جاء فيها قوله:

غنّى بثورتِها الرهيبةِ شاعرٌ،
وشدا يُخلّدُ في العصورِ قتالَها
واشتقّ من نبضاتِها أوزانَه،
واختارَ من لونِ الدّماءِ جمالَها
صهرتْه آلامُ الجزائرِ، فانبرى
يختطُّ من آلامِه أشكالَها
خُذْها -أميرَ المؤمنين- تَجِدْ بها
من روحِه لبلادِه تمثالَها[36].

لقد كان مفدي زكرياء في مقاومته للاستعمار يدرك بوضوح ما للتخلّف والجهل والفرقة، من أثر في التمكين للاستعمار، وإبقائه جاثما لا يتقهقر، فعندما يتحدّث عن العلاّمة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1960م، يقول: «لم يكن ابن باديس مصلحا دينيّا فحسب، ولا وطنيّا صادقا، وصحفيّا واعيا فقط كما يقولون، إنّما ابن باديس كان أبا لجيل، ذلك الجيل الصاعد الذي ابتدأ سنة 1925 بالثورة على الجهالة والضلال، وانتهى سنة 1954 بالثورة على السلاسل والأغلال. إنّه يفتخر بهذه الأبوّة، إنّه يقول: أنا لم أنجب أولادا، ولكنّي أب، لأنّ كلّ الجزائريّين أبنائي»[37].

وعليه فإنّ القضاء على التخلّف والجهل، ومحاربة الفرقة والتدابر كانا من أهمّ اهتماماته، لا لشيء إلاّ لأنّهما يعرقلان مسيرة التخلّص من ربقة الاستعمار، فكان ذلك هاجسا لازمه منذ فجر حياته الأدبيّة:

نجده في سنة 1930 ينشر في جريدة "المغرب" قصيدة عنوانها "جزائر ما أشقاك بالجهل"، يندّد فيها بالجهل، وما ينجرّ عنه من ويلات، فيقول في أبيات منها[38]:

جزائرُ ما أدهى خطوبًا تعاقبتْ
عليكِ، وكم لاقَيْتِ مِنْ خيبةِ المَسْعَى
جزائرُ ما أشقاكِ بالجهلِ، إنّه
إذا حلَّ شعبًا -صاحِ- أَوْرَدَهُ النَّزْعَا
هو الجهلُ إنْ يَحْلُلْ بلادًا أنالَها
مِنَ الدّهرِ ما لا تستطيعُ لهُ مَنْعَا
بني وطني، يكفي الشّقاقُ، فأنتمُ
بنو رحمٍ أضحى البلاءُ له طَلْعَا
بني وطني إنْ فرّقَتكمْ مذاهبٌ
ففي الجرحِ إخوانٌ، وفي الماءِ والمَرْعَى

وفي نفس السياق كان يدعو الطبقة المثقّفة إلى تركيز جهودها في سبيل تخليص الأمّة من الجهل والتخلّف والفقر، ففي بداية الثلاثينيّات أعلنت جريدة "المرصاد" الحرب على المناهضين لجمعية العلماء المسلمين، واعتمدت أسلوب التهكّم اللاذع، والسخرية الجارحة، وكانت مقالاتها «لا تحتوي على زاد فكريّ، أو مضمون ذي قيمة تذكر، اللّهم سوى الثلب والتهكّم والسخريّة»[39]، فكان أن «دعا صاحب الجريدة "ديك الجنّ" (مفدي زكرياء) ليشارك في هذه المعركة، ولكنّه آثر أن تكون الكتابة في غير هذا الميدان، قائلا لمدير "المرصاد": إنّي أفضّل «أن تولّي وجهك نحو الأبحاث الحيويّة الحقّة، وأن

تستخدم مواهبك الطيّبة في النهوض بأمّتك إلى تأسيس المعاهد العلميّة، والمدارس الحرّة، لتثقيف عقول أبنائها...إلى تأسيس النقابات التجاريّة، إلى إنشاء النوادي الأدبيّة، لربط صلات التعارف بين عائلة الأدباء المشتّتة هنا وهناك... إلى مقاومة الأخطار الاجتماعيّة التي تهدّد قوميتنا، وديننا الإسلاميّ الحنيف»[40].

وكان يقف في وجه من يخطأ هذا السبيل، لأنّه يعتبره أولوية الأولويات، فعندما احتدم الصراع بين بكوشة وحلوش حول مسألة السفور والحجاب، كتب سنة 1937م مقالا عنوانه "بكوشة وحلوش في الميزان"، جاء فيه: «قضى الله -ولا رادّ لقضائه-أن يبتلى قرّاء الصحافة العربيّة في هذا القطر -طيلة شهر كامل-بتلك المناقشات الفارغة، والمجادلات البيزنطيّة التي يثيرها الشيخان: بكوشة وحلوش، حول مسألة الحجاب، متّخذين منها أداة لإشباع نهمهما من لحوم بعضهما بعضا، ووسيلة لإظهار براعتهما في استعراض الهنات، وحشر الألفاظ السفسافة المبتذلة التي يأنف من سماعها من يحمل ضميرا شريفا. [...] وليس أنكى على الجزائر من شبيبتها السارحة في بيداء التيه، السابحة في بحر الغفلة، المشتغلة بالعبثيّات عن الواجبات، القانعة بالدون من الحياة، القاطعة صلتها بتلك القوّة الجبّارة التي أصبحت تجرّ الدنيا من ناصيتها جرّا، وتتصرّف في العالم برّا وبحرا، وتملأ الفضاء دويّا، تلك القوّة يقال لها (الشباب)، وذلك التصرّف يلقّب بـ(روح الشباب)، وهذا الدويّ يسمّى (صرخة الشباب).

يتركّب من تلك الأقانيم الثلاثة هيكل خالد مقدّس يقال له (أمانة الشباب) و(رسالة الشباب). فالويل والغضب لمن خان هذه الأمانة، وكذّب بتلك الرسالة، فهل كانت شبيبتنا الجزائريّة مؤمنة بها، برّة بأمانتها، مندمجة كعنصر صالح في جسم تلك القوّة الهائلة؟

إنّ الجزائر تحتضر، وتعالج النفس الأخير، تعوزها الجرعة تتبلّغ بها، واللقمة تزدردها، والنسمة تتنفّسها، والدمعة تذرفها على أبنائها، فهل مسألة السفور والحجاب، تغنيها شيئا في نكبتها؟ وهل تحول بينها وبين شبح الموت المهول، وعزرائيل على رأسها؟»[41].

وقد يتجاوز مفدي زكرياء في اهتمامه بهذا الموضوع الجزائر إلى المغرب العربيّ، فيهتمّ أشدّ الهمّ والغمّ عندما يتفرّق شمل الطبقة السياسيّة بالمغرب الشقيق سنة 1937م، فيكتب مقالا بعنوان "نداء إلى إخواننا الوطنيّين بالمغرب الأقصى"، يفتتحه بالآية الكريمة{وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[42]، ويقول فيه: «إخواننا المغاربة، ليس هذا وقت التنازع، فلن يستفيد من موقفكم هذا غير أعدائكم، وأعداء قضيّتكم المقدّسة الذين طالما وقفتم أمامهم صفّا واحدا، فتقهقر وانهزم؛ بل يستفيد منه أعداء شمال إفريقيا كلّها، وأعداء العروبة والإسلام، ولا تكون ضحيّته غير الأمّة الضعيفة المسكينة التي أصبحت يائسة من كلّ شيء، إلاّ من رحمة الله، وقانطة من كلّ شيء، إلاّ منكم أيّها الوطنيّون الكرام، فاتّقوا الله في حقوق هذه الأمّة الضعيفة، وصونوا حرمتها، وارعوا ذمامها، وارحموا ذلّتها ودموعها، ولبّوا نداءها، واسمعوا أنينها وشكواها»[43].

وعلى أساس هذا الموقف يحدّد واجب الأديب والمثقّف نحو مجتمعه في هذا النداء إلى الكتّاب، وقد ورد ضمن افتتاحية العدد الأوّل من جريدة "الشّعب"، بتاريخ 27 أوت 1937م، وكان عنوانها "صرخة الشّعب: مبدؤنا في طريق الجهاد"، وذلك حيث يقول[44]:

تعالَوْا نقتسمْ حُلوَ الأماني،
تعالَوْا نقتسمْ هذي الجِرَاحَا
تعالَوْا نرهفِ الأقلامَ يومًا،
ونذكرْ عندها الأدبَ الصُّرَاحَا
ونكتبْ بالدّمِ الغالي حروفًا،
نعلّمُ للبنينِ بها الكِفَاحَا
وننقذْ باليَراعةِ حقَّ شعبٍ،
غدا نهبًا، وأصبح مُسْتَبَاحَا
[...] كفى يا أيُّها الكتّابُ نومًا،
وحسبُكُمُ -بني أمّي- مُزَاحَا
[...] فلا نالَ الكرامةَ مَن تَوَانَى،
ولا رُزقَ الحياةَ مَنِ اسْتَرَاحَا.

إنّه موقف صريح وصارم لمفدي زكرياء في مواجهة الاستعمار، ومقاومة مستميتة له بجميع أشكالها، كان يتقدّم فيها الصّفوف، يكتوي بنار المعركة، ويتحمّل آلام المواجهة، وتبعاتها من سجن وتعذيب، ولا يستنيم إلى حياة الدعة في برجه العاجيّ، مكتفيا من المقاومة بدعوة شعبه إلى خوض غمارها، وبتعبئة صفوفه.

إنّ مثل هذا الموقف، وهذه المقاومة قد تجد تفسيرها لدى البعض في قوّة دافع الموت لديهم، فهم متبرّمون من الحياة، يائسون، فيجدون في مقاومة المستعمر خير متنفّس لهذا الدافع، وإعلاء له، إذ يجدون فيه الرّضى من أنفسهم، والقبول اجتماعيّا؛ وما كان مفدي كذلك، فقد كان عاشقا للحياة؛ فهذا صديقه محمد قنانش يورد طرفة شاهدة على ذلك، ففي لقاء أخويّ بمدينة تلمسان، طلب منه أحدهم أن يقول شعرا في لحظة حضور أجله، وساعة موته، فأجابه: «منذ أن وعيت، وأنا أفتّش عن الحياة، وأنت تطلب منّي اليوم شعرا في الموت، أنا لا أكتب شعر الموت، وإنّما أكتب شعر الحياة»[45].

لقد كان أديبا يعشق الحياة، لكنّ الظرف التاريخيّ حمّله والأحرار من أبناء وطنه مسؤولية وأمانة، فسعى بكلّ ما أوتي من قوّة وصبر إلى تحقيق الحياة الجديرة بالحرّ الكريم، وحملَ نفسه على ما تكره في سبيلها، فهو في خوضه لغمار مقاومة المستعمر كان يستجيب لنداء الواجب، والضمير الحيّ. كان يعتبر الموت في سبيل الوطن حياة، فكان هدفه الحياة، يلتمسها في نقيضها إذا كان هو الطريق الوحيد الذي يفضي به إليها، لأنّه كان إيجابيا في الحياة.

لقد كان دافعه في الحياة ضميره الحيّ، وإحساس قويّ بالواجب، وبخاصّة واجبه نحو وطنه، ولذلك قلّما تشفّ قصائده عن معاناته الذاتيّة والشخصيّة، عن الإنسان في شخصية مفدي زكرياء، في خصوصيته، في آلامه وآماله، لقد كان يصدر عن ضمير الأمّة الحيّ والإيجابيّ، الذي ينشد هدفا ساميا نبيلا، تضمحلّ إزاءه صغائر الأحقاد والآراب. فلا نكاد نجده يبثّ نجواه إلاّ في قصائد معدودة، لعلّ من أهمّها وأروعها أيضا قصيدته "زنزانة العذاب رقم 73" في اللّهب المقدّس، وقصيدته "عيد وحدتي" في ديوانه الجديد.

ولا أدلّ على استجابته لنداء الواجب -وواجبِه الوطنيّ بالدرجة الأولى-، والضمير الحيّ من قصّته مع والده سنة 1937م، وقصّته مع ابنه في سنة 1961م:

إذا كانت الثورة في سنة 1935م كلمة غريبة على المجتمع الجزائريّ[46]، فما يكون موقف والد مفدي سنة 1937م، وهو يرى ابنه يلقي بنفسه في المعترك السياسيّ، ويكتب المقالات والقصائد الناريّة الصريحة ضدّ الاستعمار[47]، وينشرها في الصحافة، غير عابئ بقوّته وبطشه؟

لقد كان والده سليمان بن يحي بن الشيخ سليمان قد تجاوز السبعين من عمره آنذاك[48]، وكان ذا ثقافة محدودة؛ وكان مفدي آنذاك متزوّجا منذ إحدى عشرة سنة[49]، وله بنت واحدة، ولم يدخل بني يزقن في هذه الفترة سوى ثمان مرّات، بسبب انشغاله بكفاحه السياسيّ.

في جويلية من سنة 1937م تأتيه رسالة من والده يطالبه بالكفّ عن العمل السياسيّ في صفوف حزب الشعب الجزائريّ، وكانت لهجتها جدّ قاسية، والوالد لم ينقم في رسالته هذه على ابنه مفدي سوى اهتمامه وانشغاله بالسياسة على حساب كسب قوته وقوت عائلته الصغيرة. لقد وضعه والده في موقف يصعب فيه الخيار: بين حبّه لوالده، وواجب طاعته التي يفرضها الدين والأخلاق من جهة، والقيام بواجبه اتّجاه وطنه من جهة أخرى، وكان مفدي آنذاك فد بلغ أقصى مدّه النضاليّ والثوريّ في صفوف حزب الشعب الجزائريّ، فما يكون موقفه؟

في يوم 04 جويلية 1937م، وعمره -تسع وعشرون سنة-يرسل رسالة إلى السيّد: زكرياء بن سعيد، زعيم القضيّة المزابيّة كما يسمّيه في الرسالة، ليتوسّط له عند والده، وممّا جاء فيها ممّا يبيّن تغليبه لواجبه الوطنيّ على عاطفته اتّجاه والده، وواجبه نحوه، قوله:

«وبعد، إنّني أوجّه إليكم داخل هذا [الخطاب] رسالة أرسلها لي والدي سليمان بن يحي -عفا الله عنه- كتبها -ولا شكّ-تحت تأثير بعض المغرضين، سماسرة الفتنة والفساد، ولست أدري لماذا هذا التحامل والتدخّل في حياتي العامّة التي أريد أن أكون فيها حرّا لا يتصرّف أحد في أفكاري، ولأجل هذه الحرية، حرّية الرجولة نحن نكابد ونجاهد.

إنّ أبي يريدني أن أكون عضوا أشلّ في المعترك الحيويّ، وأن أكون مكتوف اليد عن العمل، واللسان عن النطق، والدماغ عن التفكير، وأنا لا أريد هذه الحياة، ولم أخلق لها؛ وإنّما خلقت لأن أدافع عن بلادي، وأشترك في صفّ الجهاد والعمل في هذه الحياة، والسعي لخير بني جنسي وللإسلام عموما؛ ولم أخلق لأعيش عيشة الخمود والاستكانة والموت»[50].

وفي 27 أوت 1937م يدخل سجن بربروس، وفي يوم 18 مارس 1938م، توفّي والده، وهو في السّجن؛ ثمّ يكتب لصديقه عيسى أبي اليقظان أوّل رسالة إليه بعد دخول السّجن، وبعد سنة كاملة من دخوله[51]، يقول فيها: «طلبتم منّي أن أرسل إليكم ما عندي من منتوجات الشعر والنثر، ومن الأسف فإنّ قريحتي المكدودة أصيبت بالإعسار في هذا السجن، وقد استعضت عن الشعر الناطق بالشعر الصامت، حتّى أصبحتُ شعرا بنفسي، وأصبحتُ قصيدة مطلعها:

لم يَبـقَ إلاّ نـفَسٌ خـافتٌ،
ومـقلـةٌ إنسـانُـــها بــاهتُ
و[شاعرٌ] تُضْـرَمُ أحشـاؤُهُ،
بالنّــارِ إلاّ أنّـــه سـاكــتُ
يرثي له الشّـامـتُ فيمـا رأى،
يا ويـحَ مَن يرثي له الشّامتُ»[52].

إنّ هذا النصّ يخفي ألما شديدا عانى منه الشاعر في تلك الآونة، غير أنّه لم يكن من السهل عليه الإفصاح عنه، فلم يكن من عادته، ولا من عادة الجزائريّ عموما التعبير بتلقائيّة ويسر عن خلجات نفسه؛ فلا أظنّ قريحته تنضب، وهي التي أسعفته في لحظات أصعب وأشقّ، إلاّ بسبب تأثّره الشديد بوفاة والده، وهو غير راض عن اختياره في الحياة، فقد طالب إدارة السّجن أن تخلي سبيله لأيّام يحضر فيها جنازة والده، ويتلقّى التّعازي فيه، غير أنّ مطلبه قوبل بالرّفض؛ وعندما رزق بابنه الوحيد بعد ذلك بخمس سنوات سمّاه باسمه إكراما لذكراه.

ويدور الزمان دورته، فيكتب إليه ابنه صلاح الدين سليمان رسالة يوم 01 نوفمبر 1961م، يقول له فيها: «لقد أصبحت -أبت-في الثامنة عشرة من عمري، وأنا أشعر بعاملين يتنازعاني: مواصلة دراستي العالية، أو القيام بفرض الكفاح من أجل تحرير بلادي... فاخترت -عن عقيدة-أن أتخرّج -أوّلا-من معهد الزحف المقدّس، ولن يفوتني -إن عشت-أن أستأنف دراستي، وبلادي رافعة الرأس، موفورة الكرامة، فأسهم في بناء جزائر الغد بنفس العزيمة التي تدفعني للإسهام في معركة تحريرها ... وها أنذا -أبت-أصعد الجبل نفحة من روحك، ونبضة من قلبك، وقبسا من نورك ... أصعد الجبل، وأنت بلبنان تطبع ديوانك "اللّهب المقدّس"، لأطبع بدوري وأنا ذرّة من ديوانك، بحروف من لهب، صفحات من ديوان اللّهب المقدّس»[53].

إنّه ابنه الوحيد الذي التقى به في تونس سنة 1959م، بعد فراق 05 سنوات كاملة، فإذا هو شابّ يافع، وسرعان ما افترقا بعد ذلك، وقد كان تواصلهما -قبل ذلك وبعده-يتمّ عموما بالمراسلة أكثر منه باللقاء. فلا أعتقد بأنّه كان من السهل عليه بمكان تحمّل اختيار ابنه هذا، وقد أحسن الاحتجاج له من مسيرة والده، فكتب مقطوعة، ولم يكتب قصيدة، وأسماها بعبارة متكرّرة فيها "هكذا يفعل أبناء الجزائر"، وهي مبطّنة بمعنى المواساة لنفسه إزاء الخطر الذي يتهدّد ابنه الوحيد، وهو الذي لم ينعم كسائر الآباء بحياة عائليّة مستقرّة بين زوجه وأبنائه؛ فهذا ابنه سليمان يكتب إليه من مدينة سوق أهراس بعد دخوله أرض الجزائر من تونس، يوم 06 جويلية 1962م، فيقول في خاتمتها: «أظنّ أنّك سوف تمكث مدّة في المغرب، قبل أن تدخل إلى الجزائر، ولكن أتمنّى أن نلتقي جميعا في وسط العائلة»[54].

لكنّ الاستجابة لنداء الواجب والضمير كانت ديدنَه، مع ما يتحمّل في ذلك من مشّاق وآلام، يكبتها بقوّة وصرامة، فلا تكاد تظهر إلاّ في القليل النّادر؛ فيكتب المقطوعة بلبنان، في 15 نوفمبر 1961م، فلا يكاد يحسّ فيها القارئ بألمه، وهو يقول[55]:

هكذا يفعل أبناء الجزائر،
يا صلاح الدّين، في أرض الجزائرْ
سرْ إلى الميدانِ مأمونَ الخطى،
وتطوّع في صفوف الجيش ثائرْ
أنت جنديّ بساحات الفدا،

وأنا في ثورة التّحرير شاعرْ
زغردي يا أمَّه، وافتخري،
فابنُك الشّهمُ فدائيٌّ مغامرْ

ولعلّ أنصع صورة لاستجابته وانصياعه لضميره ونداء الواجب الذي يسمو على الرغائب، ومطالب النفس حتّى ما كان منها مشروعا، موقفه في الأيّام الأولى للاستقلال عندما طغت حمّى الكراسيّ على البعض، وحبّ الزعامة على البعض الآخر، فسقطت أرواح جزائريّة بأيد جزائريّة في شهر الاستقلال جويلية 1962م، فقد سجّل فيه أروع درس في نضال الشرفاء الذي لا يبيعون كرامتهم في سوق المصالح، فعانق الموقف المتميّز الشعر، فكانت إحدى أروع قصائده "عيد وَحدتي[56]"، فبعد أن سجّل في مستهلّ قصيدته أسفه الشديد في أن يرى كلّ ما ناضل من أجله ينسف في الأيّام الأولى للاستقلال، الاستقلال الذي كان حلم الجزائريّين لسنين طويلة من المعاناة تحت نير الاستعمار، يحدّد موقفه بصراحة تامّة لا تشكو لبسا، أو مسكا للعصا من وسطها، فيقول:

أنا إنْ كنتُ شاعرَ الثورةِ الكبرى،
فَإنّي (لِخُلْفِها) لا أُغَنّي
وإذا بالمصيرِ هَنَّأَ قَوْمٌ،
فَبِشَقِّ الصفوفِ لستُ أُهَنّي
كُنْتُ (لِلْوَحْدَةِ) النّداءَ المُدَوّي،
كيف لِلْخُلْفِ أُرْهِفُ اليَوْمَ أُذْني
مُذْ تَرَاءَى الشِّقاقُ حَطَّمْتُ كَاسَا
تِي على مَبْسَمِي، وأَهْرَقْتُ دَنّي

ثمّ يتوجّه بالخطاب للشعب يستحثّه، ويحضّه على مسح هذا الخزي والعار، مذكّرا له بمآثره التي تمنعه من التردّي إلى هذا الحضيض؛ ويختم قصيدته بما يعتبر تلخيصا لرسالته في الحياة، وفي الشعر، وبما يعتبر قصيدة في بيت، فيقول:

فَرْحَتِي (وَحْدَتِي)، وَشِعْرِي ضَمِيرِي
بِسِوَى عِيدِ (وَحْدَتِي) .. لا أُغَنّي

ففرحته في وحدة شعبه لا غير، ومنبع شعره ضميره، ولهذا لا يمكن له أن يتغنّى بالشعر إلاّ عندما يتحقّق العيد بوحدة الشعب الجزائريّ، بعد إجهاض عيد الاستقلال بما حدث.

<u>حيثيات شخصية المقاوم عند مفدي زكرياء:</u>

هذا هو مفدي زكرياء مقاوما من طراز نادر، تشهد له بذلك مواقفه النضاليّة، وإنتاجه الأدبيّ شعرا ونثرا، فمن أين اكتسب شخصية المقاوم هذه؟ وما هي مرتكزات مقاومته للاستعمار؟

لقد كان ينتسب إلى المجتمع المزابيّ الإباضيّ، بحضارته المتميّزة في مدنه السبع المشيدة منذ عشرة قرون، وهو يرتبط تاريخيّا ومذهبيّا بأوّل دولة مستقلّة على أرض الجزائر، وهي الدولة الرستميّة 164-296هـ.

لقد عبّر سنة 1972م عن إحساسه بهذا التاريخ العريق الذي ينتسب إليه، فقال: «ولدت في قرية بني يزقن، بواحات الجنوب الجزائريّ، وقريتي هذه من قرى وادي ميزاب السبع، وهي معروفة عند المؤرّخين الأجانب بالمدينة المقدّسة [...] وأسرتي تنحدر من بني رستم الذين أسّسوا بتيهرت(تيارت)، في القرن الثاني من الهجرة، أوّل دولة جزائريّة ذات سيادة كاملة [...] دامت زهاء قرنين، وتحقّق على عهدها -لأوّل مرّة في التاريخ-توحيد المغرب العربيّ الكبير، ونظام الاشتراكيّة الإسلاميّة»[57].

وهو ينتسب في المجتمع اليسجنيّ إلى أسرة عريقة، هي أسرة آل الشيخ، وهي تنتسب إلى جدّ والد مفدي الذي كان شيخا على مستوى وادي مزاب، فاشتهر بلقب الشّيخ، ونُسب ذووه إليه، فيقال: آتْ

الشيخ، ثمّ رسّمته العائلة سنة 1932م لقبا لها. كان الشيخ الحاج سليمان[58] على مشيخة وادي مزاب عندما عقدت المعاهدة بين بني مزاب والاستعمار الفرنسيّ سنة 1953م، وتوفّي على الأرجح قبيل سنة 1966م، سنة ميلاد حفيده الذي سُمّي باسمه، وهو والد مفدي زكرياء[59].

وعندما قدّم مفدي زكرياء عائلته لمحاوره الأستاذ بلقاسم بن عبدالله سنة 1972م، قال: «وجدّي الشيخ الحاج سليمان كان رئيسا للاتّحاد الميزابيّ، أيّام كان وادي ميزاب محافظا على استقلاله الذاتيّ، تربطه بالسلطة العثمانيّة المركزيّة معاهدة حماية، ظلّت سارية المفعول طوال عهد الاحتلال الفرنسيّ للجزائر، إلى حدود سنة 1880م»[60].

لقد كان معتدّا بهذا الانتماء، وفخورا بهذا النسب العريق، فكان معتدّا بجزائريّته بعنصريها الأساسيّين، وهما: أمازيغيّة صميمة، وتاريخ حافل بالأمجاد قبل الإسلام وبعده، كرّست لديه فكرة المغرب العربيّ الكبير، موطن الأمازيغ؛ وعروبة تشرّبتها بلاد المغرب مع إشراق الإسلام عليه، فاتّصلت سلسلة الأمجاد، فرسّخت لديه الشعور بالانتماء إلى الأمّة العربيّة، وحضارتها العريقة؛ فعن الأمازيغ يقول في إلياذته سنة 1972م[61]:

صمود الأمازيغ عبر القرون
غزا النيّرات، وراع النّجوما
فكم أزعجوا نائبات اللّيالي،
وكم دوّخوا المستبدّ الظلوما.

وبعد استعراضه للشخصيات التاريخيّة الأمازيغيّة وبطولاتها قبل الفتح، يقول[62]:

أولئك آباؤنا منذ عيسى،
وكان محمد صهرا لعيسى
[...] ولم نك ننكر آباءنا،
أكانوا نصارى، أكانوا مجوسا
وهل كان بربر إلاّ شقيقا
لجرهم؟ هلاّ نسينا الدروسا؟
إذا عرّب الدين أصلابنا،
فما زال أحمد صهرا لعيسى.

ثمّ يقول عن العروبة، متأثّرا بظروف الوطن العربيّ سنة 1972م[63]:

وُهبنا العروبة جنسا ودينا،
وإنّا بما قد وُهبنا رضينا
إذا كان هذا يوحّد صفّا،
ويجمع شملا رفعنا جبينا
وإن كان يعربُ يرضى الهوانَ،
ويلبسُ عارا أسأنا الظّنونا

وعن علاقة المغرب العربيّ بمشرقه يقول في قصيدته "رسالة الشّعر في الدنيا مقدّسة" سنة 1961م[64]:

قُدْسُ العروبةِ -والآياتُ شاهدةٌ-
ما انفكّ تغمرُه حبًّا حنايانا
وحرمةُ الضّادِ في الأجيالِ ما فتئتْ
يَرتاشُ مِن نُبلِ معناها جناحانا
والجرحُ ما انفكّ في أكبادِنا غدقًا،
يسيلُ مِن دمِه المسفوكِ عِطفانا
والمغربُ الحرُّ لا تخبو لواعجُه،
بالشّرقِ ما انفكَّ مسحورًا ووَلهانَا.

هذان العنصران تآلفا فيه وانسجما، من خلال انتمائه لوادي مزاب، المتميّز بخصوصيته المذهبيّة الإباضية، وبحضارته الفريدة، القائمة على أساس مكين من العقلانيّة في رؤيتها للإنسان والكون. هذا الوادي يقول فيه مفدي زكرياء في إلياذته[65]:

تقدّسَ واديكَ، منبعَ عزّي،
ومسقطَ رأسي، وإلهامَ حِسّي
وربضَ أبــي، ومرابعَ أمّــي،
ومغنى صباي، وأحلامَ عُرسي
وفخرَ الجزائرِ فيكَ تناهتْ
مكارمُ عربٍ، وأمجادُ فرسٍ
وأحفــادُ أوّلِ مَــن ركّــزوا
سيادةَ أرضِ الجزائرِ أمس

وعندما ولد مفدي زكرياء يوم 12 جمادى الأولى سنة 1326هـ[66]، وهو الموافق ليوم الجمعة 12 جوان 1908م، كان مسقط رأسه بني يزقن يعيش

نهضة علميّة عرفت أقصى مداها مع قطب الأئمّة الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيش 1821-1914م[67]، وقد خصّص له مفدي مقطعا كاملا في إلياذته، يقول في أوّله[68]:

طُفَيّشُ سُقياكَ قطبَ الأئمّهْ،
ومَن عاش بالفكر يصنع أمّهْ
ومَن شقّ بالعلم درب الحياهْ،
وصان لنُبل الرسالات حرمهْ
ومن قطع العمر يغزو الكتابْ،
ويَفري الظلامَ، ويلهبُ همّهْ
ودان له الحرف بالخالداتْ،
فأخلص للحرف عهدا وذمّهْ
وأنصف من خالفوه اجتهادا،
وصان عن الجدليّات علمَهْ

إنّ أهمّ ما تميّز به فكر الشّيخ أطفيش هو تفتّحه، فقد كان يدرس الأديان الأخرى غير الإسلام، ويدرس المذاهب الإسلاميّة الأخرى غير المذهب الإباضيّ، وأحيانا يأخذ بآراء علمائها، فكانت الحكمة ضالّته، أينما وجدها، فهو أحقّ بها؛ كما أنّه تميّز بإيمانه بضرورة التواصل بين المسلمين، فكان على اتّصال مستمرّ بالإباضية في عمان وزنجبار وجبل نفوسة وجربة وورجلان، وكان على اتّصال وثيق بالعالم الإسلاميّ مشرقا ومغربا، يتابع أخباره، ويراسل قادته وزعماءه؛ وقد غرس هذا الفكر في تلاميذه، فصنع من أبرزهم شخصيات وطنيّة ومغاربيّة وعربيّة وإسلاميّة؛ وهم الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن امحمد أطفيش1886-1965م[69]، والشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى1888-1973م[70]، والشيخ سليمان باشا الباروني النفوسيّ1870-1940م[71]، والشيخ صالح بن يحي بن سليمان عمّ مفدي زكرياء 1871-1945م[72]، والشيخ محمد بن صالح الثمينيّ 1897-1970م[73].

هؤلاء التلاميذ البارزون أثمر فيهم فكر القطب حركة إصلاحيّة تميّزت بقوّة ارتباطها بالفكر الإباضي، وتمسّكها به: عقيدة راسخة، وسلوك قويم؛ وذلك من خلال مدارسة تراثه العلميّ، والحرص على طبع المخطوط منه؛ وبالتفتّح على النهضة العربيّة الإسلاميّة في مختلف مجالاتها: فأنشأت بعثة علميّة إلى تونس منذ سنة 1912م تحت رئاسة الشيخ أبي اليقظان؛ ومارست الصّحافة، كصحافة الشيخ أبي اليقظان، وهي سبع صحف أصدرها بين سنتي 1926 و1938م: "وادي ميزاب"، و"ميزاب"، و"المغرب"، و"النور"، و"البستان"، و"النبراس"، و"الأمّة"، و"الفرقان"؛ ومجلّة "المنهاج" 1925-1930 التي أصدرها الشيخ أبو إسحاق اطفيش بمصر، وجريدتا الشيخ سليمان باشا البارونيّ "أسد الإسلام"1906، بمصر؛ و"البارونيّ" 1913م، بإستنبول؛ وساهمت في إنشاء الأحزاب السياسيّة كالحزب الدستوريّ التونسيّ الذي كان من مؤسسيه إلى جانب الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ كلّ من الشيخ أبي إسحاق أطفيش، والشيخ صالح بن يحي عمّ مفدي زكرياء، وكان من أعضائه الفاعلين الشيخ محمد بن صالح الثمينيّ؛ وشاركت في تأسيس الجمعيات الوطنيّة، كجمعية العلماء المسلمين التي كان من مؤسسيها الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، والشيخ إبراهيم بن عمر بيوض1899-1981م[74]؛ والمشاركة الفاعلة في الثورة على الاستعمار، فكان الشيخ سليمان باشا البارونيّ أحد أبرز قادة الثورة الليبيّة على الاستعمار الإيطاليّ، وساهم الجميع في مناهضة الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر وتونس.

ويعتبر مفدي زكرياء من أينع ثمار هذه الحركة الإصلاحيّة، استوعب فكرها وتوجّهها، ونذر أدبه لخدمتها، فقد تخرّج بتونس على يد عمّه الشيخ صالح بن يحي، والشيخ محمد بن صالح الثمينيّ[75]، واتّصل وتعاون مع الشيخ أبي اليقظان في صحفه[76]، وكان منبهرا بإنجازات الشيخ أبي إسحاق اطفيش[77]، والشيخ سليمان باشا البارونيّ[78]؛ وقال في جميعهم شعرا[79]. وهكذا نجد مفدي زكرياء يتّصل بنسب الدم إلى أحد كبار مشايخ وادي مزاب، وهو جدّه الشيخ سليمان بن الحاج عيسى، ويتّصل بنسب الفكر إلى الشيخ الحاج امحمد بن يوسف أطفيش، أشهر عالم إباضيّ بالمغرب الإسلاميّ في العصر الحديث؛ وكلاهما نسب ماجد ورفيع.

هذه الحركة الإصلاحيّة التي ساهمت في تكوين شخصية مفدي زكرياء المقاومة كانت تواكب نهضة علميّة وإصلاحيّة وسياسيّة شهدتها تونس والجزائر، وتابع فصولها مفدي زكرياء من تونس الخضراء في مرحلة دراسته بها بين سنتي 1920 و1926م، وتأثّر بها، وقد سأله الأديب عبد المجيد بن جدّو سنة 1965م: «ما هو تفسير ميلك إلى تونس؟»، فأجاب: «عقلي فطم في تونس»[80]: لقد كان يتابع نشاطات الحزب الدستوريّ التونسيّ من بيت عمّه الشيخ صالح بن يحي؛ ويحتكّ بطلبة جامع الزيتونة من الجزائريّين، الذين يقول بأنّ عددهم كان يربو على الألفين[81]، وجلّ زعماء الحركة الإصلاحيّة بالجزائر مرّوا بجامع الزيتونة؛ وصحيفة "وادي ميزاب" للشيخ أبي اليقظان كانت تصدر بتونس، وتوزّع بالجزائر.

من كلّ هذا تشكّلت شخصية المقاوم فيه، وتميّزت باعتداد كبير بالنّفس، لإحساسه بالانتماء إلى عائلة شريفة، ومجتمع عريق، وأمّة ماجدة، فسعى سعيا حثيثا إلى المجد، وترفّع عن سفاسف الأمور والدّنايا، فهو يقول -على سبيل المثال-في قصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا" سنة 1935م[82]:

ليس (الشَّمَالُ) بمثل (شَـوْقِي) عاجزًا
لـوْ أنّ فـي بـعضِ الـنّفـوسِ سَخَـاءَ
إنّ (الـجـزائـرَ) (كـالكِنَانَـةِ) حـرّةٌ،
تـلـدُ الـرّجالَ، وتُنْـجِبُ الـعُظَـمَـاءَ
[...] ما اليأْسُ في طلبِ العُلا مِن شيمتي،
إنّــي أَعُـدُّ الـقـانطين نِـسَـاءَ
لا يـأسَ فـي هـذا الـوجودِ، فـإنّنـي
لا أَنْـثَـنِـي، أو أبـلُـغَ الـجَـوْزَاءَ

وتميّز بقوّة الشّخصية، فمكّنته من مواجهة المصاعب، وتحمّل تبعاتها مهما بلغت قساوتها؛ وبوضوح الرؤية، فكان سابقا لزمانه، فتضمّن ديوانه "اللّهب المقدّس" قسما عنوانه "تنبّؤات شاعر" تنبّأ فيه بالثورة قبل وقوعها في ثلاث قصائد[83]؛ بالإضافة إلى الانقياد لنداء الواجب والضمير، وواجبه نحو وطنه الجزائر بالدرجة الأولى، فانطبع جهاده ومقاومته بالإخلاص لقضيته، ولعلّ خير شاهد على ذلك هذه الأبيات من قصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا"[84]:

وطني بروحي أفتديكَ، ومهجتي،
ودمي الشّريفِ، مبرّةً ووَفَاءَ
عـهدٌ عليَّ مدى الـحيـاةِ مقدّسٌ،
يُذكـي عروقـي نخوةً وإبَـاءَ
حسبــي فخـارًا في حيـاتـي أنّنـي
أغدو على وطني العزيزِ فِدَاءَ

مرتكزات مقاومته للاستعمار:

أمّا مرتكزات مقاومته للاستعمار، فكان ينطلق من عمق ارتباطه بجذوره في التاريخ، بمختلف منابعها، فقد كان من أكثر الشعراء ارتباطا بالتاريخ، وكان للتاريخ حضور قويّ في أدبه، وكان يستلهمه في مختلف مواقفه النضاليّة، ولعلّ خير شاهد على ذلك إلياذته المشهورة.

هذا الارتباط الوثيق بالتاريخ أكسبه إيمانا عميقا بعظمة الدين الإسلاميّ، في ظلّ فكر إسلاميّ مستنير يجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ وبعظمة الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وعظمة الأمّة العربيّة بمجدها الأثيل، مشرقا ومغربا؛ يقول في إلياذته[85]:

شربت العقيدة حتّى الثُّمالهْ،
فأسلمت وجهي لربّ الجلالهْ
ولـــولا الـوفـــاء لإسـلامـنـا،
لـما قرّر الشـعب يوما منالهْ
[...] ولولا تحالف شعب وربّ لـما
حقّق الـربّ يــوما سـؤالهْ
هــــو الـدّين يـغمر أرواحـنا
بـنور اليقين، ويرسي عدالهْ
إذا الشّعب أخلف عهد الإلهْ،
وخان العـقيدة فارقب زوالهْ

وكان ينطلق من حبّ عميق لوطنه بجمال طبيعته، وجلال مآثره في التاريخ، يصل إلى درجة الوجد الصوفيّ، فكتب عنه في قصيدته "آمنت بالشّعب فردا لا شريك له" سنة 1962م يقول[86]:

يا دارُ، يا خيرَ أرضٍ لامستْ كَبِدِي،

فشعَّ مِن نبعِها عقلٌ ووِجْدَانُ
آمنتُ باللهِ -مثلَ النّاسِ- عن ثِقَةٍ
بما رَوَتْهُ عنِ الأجدادِ أَزْمَانُ
وفيكِ جدّدتُ إيماني ومُعتقدي،
لولاكِ ما صحَّ إسلامٌ وإيمَانُ

وارتبط بهذا الحبّ للوطن حبّه وتقديسه لشعبه، على أساس معرفة عميقة به، فهو يقول للرئيس الأسبق أحمد بن بلّة في رسالة إليه سنة 1965م: «لأنّي [...] أعرف منك بنفسية الشعب الذي ولد مع ميلاد كفاحي، وعشت معه في مختلف مراحل النموّ الاجتماعيّ، وزدت به دراية في أعماق السجون»[87]؛ وفي شعبه يقول سنة1965م[88]:

أيُّها الشّعبُ، يا حكايةَ حبِّي،
يا كِيَانِي، يا مُبْدِئِي، يا مُعِيدِي
أنتَ مَن وزّعَ الضّياءَ بقلبي،
وأشاعَ الحنانَ ملءَ وُجُودِي

وفيه أيضا يقول سنة 1962م[89]:

آمنتُ بالشّعبِ فردًا لا شريكَ لهُ،
ما في حِمى الشّعبِ أسيادٌ وعُبْدَانُ
لهُ السّيادةُ في قولٍ، وفي عملٍ،
وللسّياسةِ إصغاءٌ وإذْعَانُ

وكان ينطلق أيضا من إيمان عميق بواجب الأديب نحو وطنه وأمّته، وأداؤه لهذا الواجب هو رسالته في الحياة، يقول في حديثه مع الأديب التونسيّ عبد المجيد بن جدو عندما سأله عن رأيه في الشعر التونسيّ: «المدرسة الوحيدة التي تجعل الشعر مركّزا هو الألم والمحنة، و[...] الغالب على الشعراء عدم مواكبة الأحداث القوميّة أيّام الاستعمار، فقصائدهم في الغزل، ومدح الباي، فلم يعبّروا عن محنة الاستعمار. [...] هذه الجماعة لها مجموعة قصائد بديعة جدّا، وراقصة ومطربة في الغزل، أيّام كانت الدماء تسيل، والأحرار في السجون يقاسون العذاب الأليم، [فهم] لم يعيشوا أوضاع بلادهم. من رأيي أنّ الشاعر الحقيقيّ [... إنّما] يخلد، لأنّه يعيش وضعا، وهو ضحية ذلك الوضع، فلابدّ أن تنبثق، وتنفجر عاطفته في ذلك الوضع؛ لابدّ أن يواكب مسيرة قافلة الكرامة، والحريّة، والعيش السعيد»[90].

الخاتمة:

كان هذا مفدي زكرياء المقاوم من خلال مواقفه وأدبه شعرا ونثرا، وكانت هذه حيثيات شخصية المقاوم فيه، ومرتكزات مقاومته للاستعمار، وهي تكشف عن مقاوم فذّ، ولعلّ أهمّ ما يميّز مفدي زكرياء المقاوم هو مرجعيته المستمدّة من عمق أصالته، وهو ما يجعله يمثّل بحقّ ضمير الأمّة الحيّ، وروحها الذي ينتفض في أبنائها المخلصين، عندما يحدق الخطر بكينونتها ومصيرها.

إنّ شخصية المقاوم هي خير ضمان لاستمرارية الأمّة الفعليّ في صفحات التاريخ، تصنعه، ولا تتحمّله، فهذه الشخصية ليست قرينة للاستعمار توجد بوجوده، وتزول بزواله، وعليه فإنّ من واجب الأمّة أن تنمّي القيم والمثل التي تصنع المقاوم في أبنائها، ولعلّ خير سبيل إلى ذلك إكرام ذكرى هؤلاء المقاومين، وجعلها حيّة في النفوس والعقول.

لكنّ شخصية المقاوم شخصية حرّة، وهو ما يجعلها صعبة الانقياد للرؤية الأحاديّة، والفكر الأحاديّ الذي ساد أمّتنا بعد زوال الاستعمار، فعاش مفدي زكرياء بعد الاستقلال بعيدا عن وطنه، واحتاج إلى شهادة مجاهديْن لإثبات جهاده إبّان ثورة التحرير، وعندما توفيّ دفن في مسقط رأسه، كما يدفن الغريب في بلاد غريبة، وانتظر اثنتين وعشرين سنة بعد الاستقلال، وسبع سنوات بعد وفاته، لينال وسام المقاوم من رئيس الجمهوريّة الجزائريّة الشاذلي بن جديد، بتاريخ 1984/10/25م.

ألا نجد تفسيرا ولو جزئيّا لمأساة أمّتنا الراهنة في ما فعلناه أو لم نفعله إزاء من مثّلوا ضمير الأمّة وروحها؟

الهوامش:

1-نسبة إلى بني يزقن مسقط رأس الشاعر مفدي زكرياء.
2-حياتي في الشعر، ديوان صلاح عبد الصبور، لصلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت-لبنان، ط: 1977، مج3 ص98،99.
3-اللهب المقدّس، لمفدي زكرياء، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية-الجزائر، ط1: 2000م، ص290.
4-تاريخ الصحافة العربيّة في الجزائر، لمفدي زكرياء، جمع وتحقيق: د. أحمد حمدي، دار هومة، الجزائر-الجزائر، ط1: 2003م، ص81.
5-ينظر: تاريخ الصحافة العربيّة في الجزائر86.
6-ديوان محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر-الجزائر، ط3: 1992م، ص436.
7-أمجادنا تتكلّم وقصائد أخرى، لمفدي زكرياء، جمع وتحقيق: مصطفى بن الحاج بكير حمودة، نشر مؤسسة مفدي زكرياء، والوكالة الوطنيّة للاتّصال والنشر، الجزائر-الجزائر، طبع المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر-الجزائر، ط1: 2003م، ص259.
8-ينظر: اللهب المقدّس71.
9-ينظر: اللهب المقدّس79.
10-ونعني بذلك ما نشره مفدي زكرياء في أحد دواوينه الأربعة، وهي: "اللهب المقدّس"، و"تحت ظلال الزيتون"، و"من وحي الأطلس"، و"إلياذة الجزائر"؛ ونشرتها في ديوانه الجديد "أمجادنا تتكلّم وقصائد أخرى". وقد استثنيت في هذا الإحصاء إنتاجه النثريّ لأنّه لم يجمع بعد، وهو كثير.
11-56 نصّا في "اللّهب المقدّس"، و04 في "تحت ظلال الزيتون"، و07 في "من وحي الأطلس"، و45 في "أمجادنا تتكلّم وقصائد أخرى".
12-وهي في "تحت ظلال الزيتون": في ذكرى الشابّي؛ وفي "من وحي الأطلس": وفي الحسن الثاني يعيش محمد، غنّ للأرض تساجلك السما، زفّت الشمس للقمر، الزاهية بفاس؛ وفي "أمجادنا تتكلّم وقصائد أخرى": تهنئة بمولود، موشّحة زكريا بن سليمان، عيد سعيد، كذب الناس، إلى الأستاذ سامي الشوّا، منارة المنصورة، هجاء حمار الشيخ البشير الإبراهيميّ، أنشودة عزيزة، في سبيل العائلات.
13-ولد بتاريخ 12 جوان 1908م.
14-أمجادنا تتكلّم وقصائد أخرى23.
15-ينظر: مفدي زكرياء83، 84.
16-زيارة خاطفة، برنامج إذاعيّ من الإذاعة التونسيّة، من تنشيط الأديب التونسيّ عبد المجيد بن جدّو، حلقة منه مسجّلة على شريط سمعيّ، خاصّة بمفدي زكرياء.، وقد التزمت في نقل النصّ بالفكرة، واللّفظ إلاّ ما كان منه عاميّا.
17-مفدي زكرياء، للدكتور محمد ناصر، نشر جمعية التراث، العطف-غرداية، طبع المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية-الجزائر، ط:1989، ص259.
18-مفدي زكرياء259.
19-حزب الشعب الجزائريّ 1937-1939 وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنيّة الجزائريّة، لمحمد قنانش، ود.محفوظ قدّاش، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون-الجزائر، ط: 1985م، ص265.
20 حزب الشعب الجزائريّ265.
21-مفدي زكرياء269.
22-وقد حدّد مفدي زكرياء التاريخ بـ: 12 أفريل/نيسان 1965م، في حيث صحفيّ أدلى به للأستاذ بلقاسم بن عبد الله؛ ينظر: شاعر الثورة أمام جمهوره، حوار أجراه الأستاذ بلقاسم بن عبد الله مع الشاعر مفدي زكرياء، جريدة "النصر" الجزائريّة، ع: 1986/04/19م.، ص7.
23-وهو ما تشهد به وثيقة رسميّة استخرجها مفدي زكرياء من وزارة العدل الجزائريّة بتاريخ 1972/11/24م، وصورة منها هي بحوزة مكتبة مفدي زكرياء، بني يزقن-غرداية.
24-قصّة الخليّة، وتفاصيلها المتعلّقة بمفدي واردة في الشريط رقم (1) من أصل 03 أشرطة من شهادة المجاهد صالح بن بكير حجّاج عن مشاركته في الثورة، سجّلتها معه جمعية أبي إسحاق اطفيش، غرداية-الجزائر، بتاريخ 20 أفريل/نيسان 1995م.
25-اللهب المقدّس20.

26-اللّهب المقدّس20،21.
27-نشر في جريدة "المجاهد"، ع48، 10 أوت/آب 1959م؛ ينظر: محمد ناصر264 ها09.
28-ويتحدّث المجاهد صالح حجّاج في شهادته، فيقول بأنّ الصدى في سجن بربروس كان قويّا، ويغدو رهيبا في تلك اللّحظة، خاصّة عندما تنطلق زغاريد السجينات على الساعة الرابعة صباحا، تدوّي في سكون اللّيل، فتردّدها جنبات بربروس، وتنتقل الزغاريد إلى القصبة بأسرها، فكانت لتلك اللحظة أثرا في النفس لا يمّحي؛ الشريط رقم (1).
29-مفدي زكرياء262-264.
30-ينظر: شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنيّة تحليليّة، د. يحي الشيخ صالح،دار البعث، قسنطينة-الجزائر، ط1: 1987م، ص44.
31-شهادة المجاهد صالح بن بكير حجّاج عن مشاركته في الثورة، الشريط رقم (01).
32-اللّهب المقدّس75.
33-مفدي زكرياء25 ها 25.
34-من رسالة من مفدي زكرياء إلى الدكتور صالح خرفي، بتاريخ 1974/10/17م، وقد نشرت صورة عن ظهر الرسالة في أحد أعداد مجلّة "الثقافة" التي كان رئيس تحريرها آنذاك، وصورة من صفحة المجلّة بحوزة مكتبة مفدي زكرياء، بني يزقن-غرداية.
35-ينظر: اللّهب المقدّس124.
36-اللّهب المقدّس131،132.
37-تاريخ الصحافة العربيّة في الجزائر83. وقد سبق الربط الواضح بينهما في البند الرابع من خطبته "عقيدة التوحيد"، وقد سبق في ص10،11.
38-أمجادنا تتكلّم83،84
39-الصحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1939، د. محمد ناصر، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجوائر-الجزائر، ط:1980م، ص120.
40-الصحف العربيّة الجزائريّة120،121. وقول مفدي زكرياء ضمنه منقول من جريدة "المرصاد"، ع29، 1932/12/21م.
41-جريدة "الأمّة"، س3، ع121، الثلاثاء 06 ربيع الأوّل 1356هـ، 18 ماي 1937م، ص2.
42-سورة الأنفال، الآية47.
43-جريدة "الأمّة"، س3، ع118، الثلاثاء 08 صفر 1356هـ، 20 أفريل 1937م، ص3.
44-أمجادنا تتكلّم153.
45-شريط سمعيّ يضمّ الحلقة الثانية والثالثة والرابعة من حصّة إذاعيّة حول شخصية مفدي زكرياء وأدبه، في الثمانينيّات، من إنتاج القناة الثالثة الجزائريّة، التي تبثّ برامجها باللغة الفرنسيّة، وقد حكى فيها الأستاذ محمد قنانش هذه الطرفة باللغة الشعبيّة الجزائريّة، فحافظت في ترجمتها على المعنى.
46-ينظر تعليق صديقه محمد قنانش على القنبلة التي فرقعها في مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين، بتلمسان سنة 1935م: ص11.
47-من ذلك كتابته لنشيد الانطلاقة الأولى كما أسماه في ديوانه "اللهب المقدّس": فداء الجزائر روحي ومالي، وكان النشيد الرسميّ لحزب الشعب الجزائريّ.
48-ولد سنة 1866م.
49-تزوّج في أوائل سنة 1926م.
50-صورة من الرسالة بخطّه، بحوزة مكتبة مفدي زكرياء، بني يزقن-غرداية.
51-ينظر: مفدي زكرياء71.
52-مفدي زكرياء71؛ والكلمة بين معقوفين أضفتها ليستقيم البيت.
53-اللّهب المقدّس5.
54-صورة من الرسالة بحوزة مكتبة مفدي زكرياء، بني يزقن-غرداية.
55-اللّهب المقدّس6.

56-أمجادنا تتكلّم175-178.
57-شاعر الثورة أمام جمهوره، جريدة "النصر"، ع:1986/04/19م، ص07.
58-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضية من القرن 1هـ إلى 15هـ، لجنة البحث العلميّ بجمعية التراث، نشر جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، ط1: 1999م، ج3 ص433،434.
59-هذه المعلومات استقيتها من مراسلات وجّهت إليه، وإلى الشيخ بابا ان يونس الغرداويّ بعيد المعاهدة؛ ومن خلال سجلاّت الإدارة الفرنسيّة بوادي مزاب.
60-شاعر الثورة أمام جمهوره، جريدة "النصر"، ع:1986/04/19م، ص07. ويعني بسنة 1880م سنة الاحتلال العسكريّ الفرنسيّ الفعليّ لوادي مزاب، والصواب هو سنة 1882م.
61-إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية-الجزائر، ط: 2001م، ص38.
62-إلياذة الجزائر40.
63-إلياذة الجزائر41.
64-اللّهب المقدّس296.
65-إلياذة الجزائر33.
66-ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، لمحمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ، تاريخ المقدّمة: 14 ذي الحجّة 1344هـ، 23 جوان 1926م، وتاريخ الخاتمة: 02 جمادى الثانية 1345هـ، 07 ديسمبر 1926م، الطبعة الأولى، في جزئين، وسائر المعلومات لا وجود لها في النسخة المعتمدة من الكتاب، لأنّ الغلاف والورقة الأولى أصابهما التلف؛ ج1 ص150.
67-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة4:835-849.
68-إلياذة الجزائر93.
69-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة2:44-48.
70-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة2:52-57.
71-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة3:426-452.
72-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة3:487-489.
73-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة4:802-806.
74-تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة2:36-42.
75-تنظر قصيدته "يا نزيل الخلود" في رثائه: أمجادنا تتكلّم220-222.
76-تنظر قصيدتاه "الله راض" و"ديوان أبي اليقظان والنور": أمجادنا تتكلّم85-88، و102،103.
77-تنظر قصيدته "مهرجان الزعيم الخطير": أمجادنا تتكلّم93-96.
78-تنظر قصيدته "تحيّة الشبيبة الميزابيّة لسفارة الشيخ سليمان باشا الباروني": أمجادنا تتكلّم30-33.
79-يستثنى منهم عمّه الشيخ صالح بن يحي، ولا نظنّه إلاّ وقد قال على الأقلّ قصيدة في رثائه، غير أنّها لم نعثر عليها بعد.
80-"زيارة خاطفة"، حصّة إذاعيّة مسجّلة على شريط سمعيّ، من تنشيط الأديب التونسيّ عبد المجيد بن جدّو.
81-"زيارة خاطفة"، حصّة إذاعيّة مسجّلة على شريط سمعيّ، من تنشيط الأديب التونسيّ عبد المجيد بن جدّو.
82-أمجادنا تتكلّم 134.
83-اللّهب المقدّس263-283.
84 -أمجادنا تتكلّم 132.
85-إلياذة الجزائر 87.
86-أمجادنا تتكلّم 182.
87-رسالة تاريخيّة: رسالة مفدي زكرياء إلى رئيس الجمهورية الأسبق أحمد بن بلّة، جريدة "اليوم" الجزائريّة، س05، ع1272، بتاريخ: 2003/04/07م، ص10.

88- أمجادنا تتكلّم217، من قصيدته "واجعل المغرب الكبير وحيدا نحن لم نستجب لغير الوحيد".
89- أمجادنا تتكلّم182، من قصيدته "آمنت بالشعب فردا لا شريك له".
90-"زيارة خاطفة"، حصّة إذاعيّة مسجّلة على شريط سمعيّ، من تنشيط الأديب التونسيّ عبد المجيد بن جدّو.